النثر في العصر العثماني

النثر الأدبي ((الفني)):

نعني به ذلك النثر الذي يقصد فيه صاحبه إلى العناية والتجويد والتحسين، قلّ نصيبه في ذلك أو كثر، وميادين هذا النثر متعددة، منها:

١. الرسائل الديوانية (الرسمية):

وهي ما كان يصدر عن السلاطين والولاة والوزراء من رسائل وبلاغات ومعاهدات واتفاقات وفرمانات، وكان للمماليك فضل في تطوير هذه الرسائل، بسبب عنايتهم بديوان الإنشاء وتوسيع أعماله، فكانت تصدر عن هذا الديوان: الرسائل السلطانية، والبِشارات والعهود، والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم، كل ذلك باللغة العربية.

أمّا في العصر العثماني فقد ضاق نطاق هذا اللون من النثر بعد اضمحلال شأن ديوان الرسائل، وأصبح معظم ما يكتب من تلك الرسائل هو باللغة التركية، وهذه الرسائل ذات أهمية تاريخية لأنها وثائق رسمية سجلت كثيراً من أحوال الدولة واتجاهاتها، وأحداث العصر، وألقت أضواء كاشفة على أدوار جزئية لم تقف عندها كتب التاريخ، ولا دونتها كتب الأدب.

٢. الرسائل غير الديوانية (الشخصية):

هذه الرسائل كثرت في العصر العثماني، يتبادلها الأصدقاء والخلّان من الأدباء والكّتاب فيما بينهم في عتاب، أو شوق، أو تهنئة، أو اعتذار، أو مواساة، وتشجيع واستزارة

وتقريظ وتبريك، ونحو ذلك من مطارحات ومباسطات تتناول أحوالاً معنوية وجدانية، وربما تطارحوا في رسائلهم تلك شؤوناً أدبية ثقافية فيها الطريف والغريب.

ومعظم موضوعات هذه الرسائل أشبه بموضوعات الشعر، وربّما توجّه بها الكاتب إلى وزير أو كبير أو أستاذ في مناسبة حج يزمع القيام بها أو منصب تولاه، أو توطئة لقصيدة قدّمها إليه.

وبقيت هذه الرسائل في جملتها محتفظة بجمال الأسلوب وسلامة العبارة، ولم تنحدر إلى درك الرسائل الديوانية الرسمية ضعفاً وتهافتاً، بل كانت أقرب إلى الموروث الفصيح من العبارات وتأليف الجمل. وهذا مرتبط بمدى قدرة الكاتب نفسه على التعبير واتساع ثقافته، وتمكنه من العربية، وما لديه من مشاعر وعواطف ترفد ذلك كله.

٣.المقامات الأدبية:

شاع فن المقامات في العصر العباسي وأصبحت له أصوله وطريقته وقد بلغ أعلى مراتبة على يد بديع الزمان الهمذاني، ومن بعده الحريري.

وقد اقتفى أصحاب المقامات في العصر العثماني آثار من سبقوهم إلى ذلك واحتذوا على مثالهم، وكأنهم أرادوا أيضاً أن يُظهروا طول باعهم في اللغة العربية، فكتبوا مقامات تناثرت في خلال كتبهم، أو أوردوها بكتب مستقلة، ولم يلتزموا بالموضوعات المعروفة في هذا الفن.

وعلى كثرة المقامات في العصر العثماني لم تستطع أن ترقى إلى مرتبة مقامات الهمذاني أو الحريري وبقيت مفتقرة إلى الأصالة والإبداع لاهمَّ لأصحابها إلا الإغراب في اللغة، وحشد ألوان الثقافة الأدبية والنحوية واللغوية ومحاولة التأليف بينها على تنافر.

٤. الخطب:

لم تكن الخطابة في العصر العثماني مزدهرة، ولا سيّما الخطابة بمعناها الفني المطلق، أو بمدلولها الأدبي، ذلك أن ضعف هذا الفن أو انعدامه مرتبط بالحال السياسية والاجتماعية والثقافية العامة التي لم تسعف الخطباء على ورود المناهل الصافية الرائقة، ثم إن هذا الفن أيضاً إنما يبعث عليه الانفعال الأدبي أو السياسي أو الاجتماعي، زد على ذلك أن معظم الحكام لم يكونوا عرباً أو كانت معرفتهم بالعربية ضئيلة جداً، فإن خطبوا أو كتبوا لجؤوا إلى التركية أو العربية العامية.

على أن الخطب الدينية هي التي كانت معروفة في هذا العصر، ومواضيع هذه الخطب عظات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أو تبصّر بالفروض الدينية والواجبات أو تشرح فلسفة الدين وحكمته في فريضة أو أخرى، أمّا مناسباتها فهي أيام الجمعة، والعيدان، وشهر رمضان، ثم الأحداث الإسلامية المختلفة كنصف شعبان، والإسراء والمعراج، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبقيت الخطب في العصر العثماني تقليدية بعيدة عن الابتكار ولعل سبب قلة الموروث من خطب العصر العثماني أنها كانت تلقى ارتجالاً من دون كتابة أو إعداد مسبق.

٥. الكتب والمؤلفات:

تنوعت أساليب المؤلفين في كتبهم، ولم يكونوا يسيرون في هذه الأساليب على نمط واحد في كل جيل، أو في كلّ علم، فقد تجد كتب العلم الواحد أنشئت بأساليب وطرق

شتى، كما تجد العالم نفسه يؤثر في بعض كتبه أسلوباً على آخر من ذلك مثلاً أن عدداً من كتب التراجم كُتب بأسلوب أدبي فني مثل (ريحانة الألبَّاء) للشِّهاب الخَفَاجي و(خُلاصة الأثر) للمُحِبيّ، وهناك ظاهرة أخرى وهي أنك ترى الكتاب المؤلَّف في علم من العلوم، قد أنشأه صاحبه بأسلوب علمي مرسَل، لأن طبيعة العلم لا تساعد على التأنق والتشجيع وجمال الصياغة، ولكن المؤلف لم يرض لنفسه أن يتخلى عن الصنعة البيانية والبديعية في مقدمة كتابه، لأن مقدمة الكتاب عادة تتيح المجال للعناية بالعبارة والتنوّق فيها.

النثر العلمي

هذا اللون من النثر لا يتّجه صاحبه إلى التجويد في الأسلوب، أو التأنق في العبارة، بل يرسل نفسه على سجيتها، ويتحرر من كل قيد بياني أو بديعي وهو – في معظمه نثر الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم وأنواع الثقافة ولا سيما علوم العربية، والعلوم الشرعية، والعلوم العقلية، والتاريخ، وبعض كتب الرحلات والبلدان، ثم كتب المعارف العامة.

ومعظم هذا النثر يدور في فلك الأقدمين، لأنه يقتبس من علومهم، ويلخص ما تفرّق في كتبهم، ويستمد من آثارهم إيجازاً وتكثيفاً، ومع ذلك لا يخلو أحياناً من الجِدة والابتكار فيما يتناوله من العلم.

وأساليب النثر في هذه المؤلفات ليست متوازية ولا مصبوبة في قالب واحد من التعبير، وإنما هي تتفاوت في خصائصها وسماتها وإن كان يوحّد بينها السهولة والوضوح، والبعد عن التكلف والصنعة، والحرص على تأدية المعنى من أقرب طريق.

وهذه الكتب المؤلفة ذات الأسلوب العلمي، نجد مقدمات كثير منها قد كُتبت بأسلوب أدبي فني، فإذا جئنا إلى الكتاب نفسه فوجئنا بأنه مسطّر بأسلوب علمي ناءٍ عن الصنعة وقيودها، حريص على التعبير عن الفكرة وجلاء جوانبها بشكل واضح، ومعان لا ترهق القارئ، وهذا لا ينفي أنّ التعقيد سرى إلى بعض الأساليب نتيجة لتأثير المنطق وهيمنته على العلوم كلها تقريباً حتى أفسدها وزادها غموضاً.